زعماء الاصلاح
فى العصر الحديث (*)

تأليف الأستاذ الجليل أحمد أمين بك

بقلم الأستاذ محمد خليفه التونسى

أستاذنا الجليل أحمد أمين من علمائنا النابغين الذين ندين لهم بالفضل الكبير فى «ريادة» مجهولات التراث الإسلامى وكشف خفاياه، والذين عبّدوا لأنفسهم بجهودهم الخاصة الطرق التى سلكوها إليها فاستقاموا عليها، وعُرفت بهم كما عرفوا بها. فأعلى القمم فى البيئة العلمية التى نبت فيها الأستاذ تتمثل فى علم الشيخين الجليلين: محمد الخضرى بك، وعبد الوهاب النجار، ولكن الأستاذ استطاع أن يرتفع بجهاده الشخصى إلى مستوى فوق أعلى هذه القمم. وهو من أظهر «الرواد» الأكفاء الذين أحسنوا دراسة تطورات الحركات العقلية فى التاريخ الإسلامى وأخرجوا محصول دراساتهم فى كتب كثيرة تعد فى بابها من أوفى المراجع اليسيرة التناول، وأكثرها دقة ونظاماً ووضوحاً، ومن أجل ذلك لا نرى كتاباً أخرج بعد كتب الأستاذ فى موضوعاتها إلا رأينا فيه استشهادات كثيرة بها، وإحالات كثيرة إليها، مما يشهد بفضل الأستاذ وكفايته، وحسن ثقة الباحثين به وبآرائه.

ودراسة الحركات العقلية الفردية والاجتماعية خير ما تظهر فيه «ملكاته الذهنية الأصلية» فهو يبدو المتوسم فى هذا المجال كالسمكة الجبارة فى العيلم الزاخر: سارية فى مسبحها فى خفة ونشاط عاملة بكل قوتها، منطلقة بكل حريتها دون تردد ولا بهر، ودون شعور بالخوف ولا الغرابة. ولم التردد والخوف وهى فى «بيئتها» التى خلقها الله ويسرها لها؟ لقد ألفتها فهى عنها راضية، وإليها مطمئنة، وبها ناعمة مهما اعتكر العيلم، وضاقت أزمانه، وجاشت دوامانه، واشتجرت تياراته، وأطبقت عليه الأعاصير تفاوشه من كل جانب. وإن «السمكة» لتبدو هناك فى منتهى جبروتها وحريتها وأبرع حركاتها وأجلها. فمن شاء أن يراها فى هذه الصورة الممتعة فلينظر إليها هناك، وكذلك من شاء أن يلقى الأستاذ فى أكمل أهبة وأمتع صورة فليلقه فى كتبه التى درس فيها الحركات العقلية الإسلامية: ففيها يرى ملكاته الذهنية الأصيلة متملكة فى عملها كل قواها ونشاطها واطمئنانها. إنها هنا تعمل فى «بيئتها» كأنما «تلهمها» التصرف الواجب «بداهة أو غريزة» دون بذل أى مجهود عقلى فى البحث والاختيار. إنها «ركبت» لتعمل هذا العمل، وإنها لتتكاثف فيه كل وسعها، وتجهد له كل جهدها، وإن كانت كل كلفها وجهدها خفية لفرط موافقة هذه الملكات لعملها واتصالها به.

ومن يقرأ فاحصاً متدبراً سلسلة الكتب التى أخرجها الأستاذ ودرس فيها الحركات العقلية الإسلامية مثل كتاب فجر الإسلام وتوابعه يجد كل فصل فيها مصداقاً لما نقول.

والكتاب الذى بين أيدينا على نمط هذه المجموعة لا يختلف عنها إلا اختلافاً يسيراً سنوضحه بعد، وهذه التواليف كلها تسيطر عليها «الروح العلمية» وتستقيم مضامينها على «المنهج العلمى» معاً، وقلما نجد فيها مواضع «محررة» من سلطان هذا المنهج، وأكثر هذه المواضع القليلة «حلقات مفقودة» فى سلسلة البحوث المعروضة لا تتضح «فراغات» مواضعها إلا للمختصين، و«المنهج العلمى» يوجب على الباحث ترك «فراغ مناسب» لكل «حلقة مفقودة» حتى يعثر عليها هو أو غيره بعد، وتظل قبل ذلك «مفتوحة» للدارسين.

لا يختلف هذا الكتاب عن «فجر الإسلام» وتوابعه إلا فى الغاية التى يرجوها المؤلف منه، فهو لا يقصد فيما يقدم من معلومات عن هؤلاء المصلحين وإصلاحاتهم أن تُعلم فحسب بل أن تكون حافزاً لهم الشباب إلى الإصلاح والنهوض بأممهم،

(*) الكتاب ٣٥٨ صفحة من القطع الكبير، نشرته مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلى بالقاهرة، وطبعته لجنة الترجمة والتأليف والنشر سنة ١٩٤٨، وثمنه أربعون قرشاً

ومن أجل ذلك لا عبرة بأن فصول الكتاب متناثرة ، ولا بأن بعضها نشرت من قبل على « صورة » مقالات فى بعض المجلات ولا عبرة حتى بعنوان الكتاب « زعماء الإصلاح .. » فأنت إذا كتبته « حركات الإصلاح ... » لم يكن عنوانك أقل صدقا فى دلالته على مضامين الكتاب من العنوان الذى اختاره مؤلفه له فهو « كتاب عنى فيه أستاذنا الجليل بدراسة الحركات الإصلاحية التى تمثل أبرز صورها فى طائفة معظمهم من زعماء الإصلاح الدينى وأقلهم من زعماء الإصلاح السياسى فى الشرق الإسلامى فى الجيل الماضى » وأولا أن هذا التعريف — على قصره — لا يصلح أن يكون عنواناً لطوله لكان أليق عنوان لهذا الكتاب لأنه أصدق تعريف به كما سنقصه . وليسأل نفسه وحدها من يفهم العنوان على ظاهره .

يتضمن الكتاب تعريفاً فمقدمة فعشرة فصول اختص كل منها بزعيم وحوى له صورة شمسية ، فخاتمة .

فأما التعريف ، فبالكتاب وتطور نشره والغاية منه : فموضوعه « سير عشرة من المصلحين الحديثين فى الأقطار الإسلامية المختلفة » فأما أنهم عشرة كما وصفوا فنعم ، وأما أن الكتاب فى سيرتهم أو سيرهم فتعريف فيه « تواضع » من ناحية ومبالغة من أخرى ، كما سنبين بعد . ويفهم من كلام التعريف أن كثيراً منه نشر فى بعض المجلات ، ثم أتم وجمع « ليسهل تناوله ، ويكثر تداوله » وقد أحسن أستاذنا فيما صنع : إذ أرضى بصنيعه الكريم رغبة إليه ملحة كانت تعتلج فى نفوس من قرءوا الأجزاء التى نشرت منه ، ومما يزيد فى قيمة صنيعه أن فى الزعماء الذين تحدث بهم فى كتابه من ليس للقراء علم حتى باسمه ، ومنهم من للقراء به علم قليل مضطرب لا يسد حاجة ولا « يثير » فكراً أو قلباً . والغاية المرتجاة من الكتاب « أن يكون — فيما يصور من حياة المصلحين ونوع إصلاحهم — باعثاً للشباب ، يستثير هممهم ، فيحذون حذوهم ، ويهتدون بهديهم وينهضون بأممهم » وإنها لغاية حقيقة بالتقدير والسعى إليها ، ولا عجب فى أن يصمد إليها « مرب » كأستاذنا الجليل .

وليست هذه الغاية ظاهرة فى فصول الكتاب ، فالمؤلف أعقل وأكرم من أن يظهرها فى فصوله ، وإن كانت حاضرة فى ذهنه وهو عاكف على كتابة هذه الفصول . فمن « وراء » المعلومات التى يسوقها إلينا « معلمنا » الذى لا يعنيه إلا بسط الحقائق « للمتعلم » بل قبل القصدى للتعليم وبعيداً عنه : أى فى مرحلة « اختيار » الموضوعات التى تعلم — من وراء ذلك كله يبدو المؤلف موجهاً عقله إلى عقول « تلاميذه ومريديه » وقد انبعثت من قلبه حرارة منظورة مجتازة عقولهم إلى قلوبهم حناناً وخفية « لتوحى » إليها إيحاء بالعطف والغيرة على المصلحين وإصلاحاتهم والنفور والتمرد على أعدائهم وأعدائها ، من غير أن يدرك « التلاميذ والمريدون » أنهم فى حضرة « مرب » أو واعظ فالمؤلف « يربى » من غير إخلال بالأصول التى يجب على « العالم » التزامها ، ولا يسلك سبل الوعاظ المفضوحة المقيمة ولا يتكلف حماستهم الزائفة ، فمن « يعلمه » هذا الكتاب فيها ونعمت ، ومن « يربه » فهو أفضل .

وأما الفهرس فثالثا صفحة فى عناوين فصول الكتاب لا فى أعلامه ، ولا فى عناصر موضوعاته ونحو ذلك ، ولا حاجة إليها لما سنبين .

وأما المقدمة فهى لازمة أشد اللزوم لفهم الفصول التى يليها إجمالا ، وهى تمهيد لها ، إذا لمح المؤلف فيها إلى نهضة العالم الإسلامى بعد الإسلام ثم سقوطه وجموده ، وما أصابه من محن حطمته وتركت فيه كثيراً من الآثار السيئة ، ثم ما كان من نهضة الغرب واقتحامه الشرق اقتحاماً جعله يفيق من غفلته ، ويحس بعيوبه وبحاجة إلى إصلاحها ، والمؤلف يبين بذلك أن البيئات التى ظهر فيها هؤلاء الزعماء كانت تحس بحاجتها إليهم وبين أن « أمكنتهم » كانت « فارغة » تنتظرهم ، وأنهم لها وأنها لهم ، لم يقحموا فيها إقحاماً . ومن ثم يراهم القراء حيث هم دون أن يحس لظهورهم بغرابة ولا حيرة .

وأما الفصول العشرة ، فقد اختص كل فصل منها بزعيم ، والزعماء العشرة هم كما رتبوا فى الكتاب محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب ، ومدحت باشا فى تركيا ، والسيد جمال الدين فى الأفغان ومصر وغيرهما ، والسيد أحمد خان ، والسيد أمير على فى الهند ، وخير الدين باشا التونسى فى تونس ، وعلى باشا مبارك ، وعبدالله نديم فى مصر ، والسيد عبد الرحمن الكواكبى فى الشام

والشيخ محمد عبده فى مصر . وقد اختلفت حظوظ الفصول من صفحات الكتاب : ففصل « السيد أمير على » وهو أقصرها — نال سبع صفحات ، وفصل « الشيخ محمد عبده » وهو أطولها — نال إحدى وستين صفحة ، وبقية الفصول بين هذين حظاً ، وفى كل فصل درست « البيئة التى نشأ فيها الزعيم المصلح وحاجتها إليه ، وصفاته التى أهلته للزعامة فيها ، وما واجهه فى جهاده من عقبات ، وتعاقب عليه من أزمات ، وما صادفه من نجاح وخيبة وأسباب نجاحه وخيبته . كل ذلك قد ساقه المؤلف بأسلوب سديد ، وتعبير واضح ، مع أدب جم فى النقد ، وتقدير قصد فى النقاد .

وكما اختلفت الفصول حظاً من الطول والقصر اختلف حظها من الإتقان والتماسك ، ومن التأثر الجلى بالغاية التى قصدها المؤلف بكتابه .

وأما الخاتمة ، فقد استعرض المؤلف فيها إجمالاً وصف النقلة التى انتقلها الشرق الإسلامى على أيدى مصلحيه ، والفروق بين حاليه قبلهم وبعدهم ، وما وقع من الغرب عليه من أفكار ونظم فى استبداده به ، والأزمات الروحية والمادية التى يعانيها الآن ، والتيارات والمذاهب الفكرية والاجتماعية التى تتدافع فيه ، والأخطار التى تتهدده ، والأطماع التى تتجمع حوله ، والمشكلات التى تواجهه فى انتظار الحل على أيدى « مصلحين جدد » والشروط التى يجب توفرها فى المصلح ، والشروط التى يجب أن تهيأ له لنجاحه فى إصلاحه .

هذه كل مضامين الكتاب بإجمال دقيق ، ومن استعراضها يتبين سبب إعراضنا عن فهم العنوان على ظاهره ، فلم يدرس الكتاب بالإجمال ولا التفصيل « كل زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ولا فى الجيل الماضى وحده فضلاً عن الجيل الحاضر ، ولا كل زعماء الشرق الإسلامى فضلاً عن الشرق عامة والعالم بوجه أعم ، ولا حتى « كل » الزعماء الدينيين فى الجيل الماضى فى الشرق الإسلامى ، بل اكتفى بدراسة حركات الإصلاح على التحديد المتقدم كما يمثلها « أبرز » زعمائها ، وهو مع ذلك لم يوجه عناية ممتازة بتصوير « شخصيات » هؤلاء الزعماء البارزين القلائل ، ودراستهم دراسة بيوجرافية بل أقنع من ذلك مع أكثرهم بأقل ما يكفل فهم الصلة بين شخصية المصلح وإصلاحاته مع أقلهم بما لا يفيد شيئاً فى فهم هذه الصلة التى لا بد من فهمها وهو يهتم فى دراسة الزعماء أحياناً ببيان بيئتهم وأثرها فيهم ، وبيان ما ورثوا من أصولهم ، ويتمسك بتطبيق ذلك عليهم وعلى أعمالهم وإصلاحاتهم ، ولكنه يأتى مثلاً فى فصل الشيخ محمد عبده فيعترف بأن نبوغ النابغ يعتمد على عنصرين : استعداده الفطرى وبيئته التى عاش فيها ، ويلتوى على أستاذنا تطبيق ذلك على الشيخ الإمام ، فينفض يديه عنه جملة ، ويقول « إنه هكذا خلق » (ص ١٨٥) ولا عجب فى ذلك عندنا لأن مجال أستاذنا الجليل الذى تظهر فيه ملكاته الذهنية الأصلية — كما قدمنا — دراسة الحركات العقلية ، ولا نقول فيه إلا ما قال فى الشيخ الإمام « إنه هكذا خلق » وذلك حسبنا وحسبه أيضاً كى يكون من أعلامنا الذين نفخر بهم ونطاول بهم أمثالهم فى شتى الأمم عن ثقة وجدارة

ليس فى الكتاب دراسة جليلة ولا تافهة لديفاليرا ولا مزاريك ولا طيلاق ولا غاندى ولا تشانج كاى شيك ولا مصطفى كمال ولا سعد زغلول ولا قاسم أمين ولا أحد من كثير أمثالهم ، وإن كانوا جميعاً من « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » بل من أبرز زعمائه ، وفيهم ما لا يقل فى عظمته وأثره فينا وقربه منا ، وصلته بنا عن كثير من الزعماء الذين اختارهم المؤلف الكبير .

وقد خلا الكتاب — مع أنه تاريخى — خلواً تاماً من ذكر المراجع : فلا إشارة إليها مفصلة ، ولا مجملة فى حواشى الصفحات ، ولا تمديد لها فى أول الكتاب ولا فى آخره ، ولا فى أوائل الفصول ولا أواخرها ، ولعل غاية المؤلف من كتابه هى شفيعه فى هذا السكوت ، فهو كتاب موجه إلى الشباب كى يثير حميتهم ، ولا حاجة مع هذه الغاية إلى ذكر المصادر ، لأن « الثقة » بما يقول « المربى » أمر مسلم به لدى « التلاميذ والمريدين »

ولعل اسكوته سبباً آخر شافعاً له : فقد نشرت فصوله من الكتاب فى صورة مقالات فى إحدى المجلات للقارىء العجلان ، ثم جمعت المقالات المنشورة وأضيف إليها مثلها فاستوت كتاباً ، ولا ضرورة مع القارىء العجلان إلى ذكر المراجع أيضاً ، إذ كل ما يعنيه أن « يعلم » وقد « يثار » بذلك وحده ، ولا حاجة إلى المصادر لا فى « التعليم » ولا فى « الإثارة » ولا بعينه مرجع

علمه وثورته للبحث بنفسه بعد ذلك استزادة من العلم والثورة .

غير أن ذلك كله لا يمنعنا من ملاحظة نصوص حصرها أستاذنا بين أقواس ، ولا شك أنها من كلام غيره ، ولا ذكر معها لأصحابها فى المتن ولا الحاشية (مثلا ص ٣٩) كما أن هناك نصوصاً حصر أولها وأطلق آخرها وذلك يحير القارئ، فلا يستطيع أن يميز كلام المؤلف من كلام غيره (ص ٣٩) .

وقد تغفر « الثقة » و « المجلة » السكوت عن المصادر كما أسلفنا ، ولكنى لا أدرى أتغفران للمؤلف أيضاً أن ينطلق فى إيراد خواطر على لسان مصلح دون أدنى إشارة إلى اقتباس نص له ولا استشهاد بواقعة تاريخية عليه تؤكد لأهل « الثقة » وأهل « المجلة » مما أن المصلح كان يفكر على النحو الذى قيل على لسانه للتفرقة بين أسلوب القصاص وأسلوب الباحثين (أنظر ص ٤١ — ٤٢ ، ص ٤٥ — ٤٦) .

إن لكل كفاية مزيتها وخطرها ، وقد تحدثت قبل بكفاءة أستاذنا فى دراسة الحركات العقلية ، وجودة سبح ملكاته الذهنية الأصلية فى عيلمها الزاخر مهما اعتاصت مساربه ، ولعل هذه الرغبة فى السبح هى التى أدت بها — فى دراسة الحركة الوهابية — إلى تناول الحالة الدينية فى الشرق الإسلامى عامة ، وإلا فهل يمكن أن نسلم مهما بلغت « ثقتنا » وبلغت « مجلتنا » — بأن محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب كان يعرف « فى مصر شجرة الحنفى ، ونعل الكلشنى ، وبوابة المتولى » (ص ٩) أو هل تأثر بهذه « المقدسات » وإلا فما الداعى إلى الحديث بها فى دوافعه إلى الإصلاح ، والحديث بغيرها فى غير موضعه (مثلا ص ١٢٩ — ١٣٠) .

وأستاذنا الجليل — غفر الله له انتصاره للعامية — كتب بالعربية منذ عشرات السنين ، فهو كاتب « منقوع » فيها ، ومن أجل ذلك وجب علينا أن نعرف له حق « المجتهد » فى « سك » تراكيب جديدة فيها ، ولو لم ترد « المعاجم » بها ، ما دام لها مبرر « ذوق » يحسه الأديب . مثال ذلك قوله « مازجا التصوف بالفلسفة بالهيئة بغير ذلك » (ص ٦٣ ومثله فى ص ٣٠٩) وقوله « غيورون » (ص ٣٥٥) والمعروف أن جمع غيور غُيُرُ . وأنا أحمل تبعة هذا وما إليه مع أستاذى الكبير .

وقد وردت تعبيرات أخرى لا أدرى رأى القراء فيها ، فأستاذنا يستعمل « السِّلْم » مذكرة (ص ٣٥٥) وما أعرفه — وليس بين يدى معجم — أن السلم مؤنثة كما وردت فى القرآن « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » فهل يجوز تذكيرها ؟ ويقول « صورة للسيد جمال الدين أهداها الشيخ محمد عبده .. » (أنظر الصورة أمام ص ١٠٠) والذى أعرفه أن أهدى يتعدى لثانى مفعوليه بإلى أو باللام . ويقول « فمن أراد الحق كاملا وإلا لا » (ص ١١٠) وأعرف القول « وإلا فلا » (أنظر أيضاً ص ٤٤ ، ٢١١) .

وفى الكتاب مواضع موازنة بين شيئين أو أكثر لبيان وجوه الوفاق أو الخلاف ، غير أن ما قيل فى الموازنة لا « يوضح » هذه الوجوه توضيحاً حاسماً ولا شبه حاسم (أنظر الموازنة بين محمد عبد الوهاب ومدحت باشا وجمال الدين ص ٥٧ ، والموازنة بين ابن خلدون والكواكبى ص ٢٦٣) .

أما بعد فنحن نتوجه إلى أستاذنا الكبير بالتقدير والتحية ، شاكرين على ما أسدى إلينا نحن الشباب من فضل بهذا الكتاب القيم الممتاز من وجوه عدة ، راجين الناشئة أن يقرءوه كى تتحقق الغاية التى ارتجاها أستاذنا لهم منه . وإنهم لأهل أن يستزيدوه من أمثاله ، و« كل يعمل على شاكلته » و « كل ميسر لما خلق له » و « الله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

(القاهرة) محمد خليفة التونسى

محمود الخفيف

يقـــــدم

من وراء المنظار

صور انتقادية فكهة من حياتنا الاجتماعية